الموسم

مجلة فصلية مُصوّرة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 12) – 1991 – 1412

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمّد سعيد الطريحي

شماره ثبت
تاریخ

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND

Shiabooks.net

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

الطبائع النفسية في ثورة الحسين التحريرية

● توفيق الفكيكي المحامي

لقد مضت قرون ، وانقضت عصور ، وكرت دهور على نهضة ابي عبد الله الحسين ، «ع» وهي هي جديدة على كر الجديدين ، ولاتزال مأساتها الدامية الفاطعة ومصيبتها الجائحة ورزيتها الفادحة الكاظمة يئن ويتوجع بها ضمير الانسانية الحساس . وبرغم ما ألف الكتاب من اخبارها ونظم الشعراء ملاحمها ووصف الادباء والمؤرخون فواجعها على تعاقب اجيالهم وتباعد ديارهم واختلاف نحلهم ومللهم ، فإن اكثر صفحات تلك الثورة الجبارة لم يتناولها بعد بحث الباحثين واقلام المحققين ، ومهما قام اساطين العلم ونشط جهابذة الادب والفلسفة وامراء البيان من مشاهير عصرنا في الشرح والتفسير فلا تزال همتهم العالية عاجزة عن الاحاطة بآيات النهضة الحسينية والالمام التام بمعرفة عناصرها الفلسفية وادراك معانيها الجليلة وبسط روائعها النفسية .

والحق ان النهضة الحسينية المقدسة لم يتناولها التحليل الكافي والتعليل الشافي اوقل ان الحسين بن علي عليهما السلام لم تدرس شخصيته ونفسيته حتى الآن وستظل تضحيته آية الآيات في عالم البطولات النادرة ونهضته عنوان النهضات الاصلاحية التطهيرية التي تستحق عناية كبار المفكرين من علماء علم النفس وعلم الاجتماع وموضع اهتمام فلاسفة التأريخ وعلم الاخلاق في كل جيل وفي كل زمان ولامبالغة ولامغالاة في هذا اذا ما اعتقدنا انه عليه السلام كان احد الثقلين فهو اذن شريك القرآن ومن كان شريك القرآن العظيم فحديث نهضته في سبيل قرآنه خالد بخلود القرآن مادامت السموات والارض . . ولنعم ما قال الاستاذ محمود الحبوبي :

تمضي العصور ولم تزل من مجده
تتناقل الاخبار والانباءا

لكل ثورة من الثورات التاريخية دينية كانت أو سياسية أو اجتماعية علل عامة واسباب خفية قوية الاثر إلا ان علة العلل للثورات انما هي الصراع بين الفضيلة والرذيلة في المجتمع لهذا تختلف صفة الثورة باختلاف صفة الشخصية القائمة بتحقيق غاياتها واهدافها ولكن على العموم ان الابطال الابدال يثورون غالباً للحصول على المساواة لهذا فإن الشرف والفضيلة من حظ قليلي العدد والصفات المضادة من نصيب الاكثرية . . فالشخصية العاملة على خلق الثورة وفي نظر احد فلاسفة عصرنا : هي الركن الاول الذي تتحد وتجتمع حول ارادته الافكار والذي يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها الان تصير طائفة خاصة وحزبا معيناً .

فما هي تلك الشخصية ؟ وما هي عناصرها ؟؟

عرف علماء علم النفس الحديث الشخصية بأنها المصدر الذي تنبعث منه الارادة وان الارادة هي المصدر الذي تنبعث منه الشخصية وبعضهم قال انها شيء يبنى ويتكون مع سير الحياة ، وان العنصر الاول في تكوين الشخصية القوية هو تناسق العواطف وتنظيمها وانسجام بعضها مع بعض ، ولعل افعل وسيلة في تحقيق هذا التناسق بين مختلف العواطف هو تغلب عاطفة معينة منها ومقدرتها في سائر الظروف والاحوال على توجيه السلوك نحو غاية تخضع لها جميع الغايات الاخرى . وقد تكون هذه العاطفة الغلابة المتفوقة حب العدالة والمساواة أو الاسرة أو الوطن أو المال . اذ حينما تتغلب عاطفة من هذه العواطف على سائر مظاهرها الاخرى وضروبها تدعوها الشهوة الحاكمة المسيطرة ، وكلما تعارضت البواعث الاخرى مع البواعث بهذه الشهوة إنزوت متراجعة منهزمة ولم تستطع مغالبة العاطفة المستحكمة [1]

اما علماء الاخلاق والاجتماع فقد عرفوا الشخصية «بأنها مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والارادية التي يتوج بها الانسان» [2]

وهذه التعاريف بجملتها تنحصر في المعنى الثاني للشخصية اي هي الشيء الذي يبنى ويتكون مع سير الحياة فتطوى تحت هذا المعنى مجموعة الصفات من عقلية وخلقية وجسمية وارادية وعوامل البناء والتكوين لهذه المجموعة من الصفات هي عامل الوراثة والتربية الذاتية لاغير وعلى ضوء العلم ـ علم النفس والاجتماع ـ والاخلاق ، نتكلم عن مظاهر الطبائع النفسية في شخصية الحسين «ع» واثرها في ثورته التحريرية . كانت الحكمة العربية قد نطقت بأهمية قانون الوراثة قبل ان يقرر علم النفس الحديث ومن قبله علم الاجتماع فقد جاء في امثال العرب .

«١» ومن يشابه أبه فما ظلم «٢» ومن سعادة المرء ان يشبهه ابنه «٣» فلان ينظر عن عين ابيه ويبطش بيده «٤» مانطف فحل بمثله .

وقال زهير :

وان يك من خير اتوه فإنما
توارثه آباء آبائهم قبل

وقال سعيد بن صمصمة وهو يرقص ابنه :

احب ميمون اشد حب
اعرف منه شبهي ولبي
ولبه اعرف منه ربي

وسبق للعرب ايضاً ان ادركوا تأثير اجناس الامهات في الاولاد فقد سئل بعضهم عن ولد الرومية فقال صلف معجب بخيل فولد الصقلية قال : طفس زنيم ، قيل فولد السوداء فقال الشجاع سخي ، قيل فولد الصفراء قال : هم انجب اولاداً والين اجساداً واطيب افواها . قيل فولد النوبية قال : فاسق زان قيل فولد العربية . قال أنف حسود ، قيل فولد اليهودية ، قال : دغل قذر قيل فولد الفارسية ، قال : مكر وخديعة ثم قال :

فلو كنتم لكيسة اكاست
وكيس الام يعرف في البنينا

قال عبد الله بن صفوان لابنه «يا لكع» ! فقال : اما يشبه الرجل اباه فمهما كان من حسن وقبيح .فمنك تولده ولهذا جاء في الحديث الشريف (اختاروا لأولادكم خير البطون) وقال «ص» [اياكم وخضراء الدمن] وهذا غيض من فيض مما نطقت به الحكمة العربية في جاهليتها واسلامها وفي هذا العصر قرر علماء الاجتماع هذا الاصل واطلقوا عليه قانون الوراثة وتبعهم

بعد ذلك علماء علم النفس ووضعوا على ضوء هذا القانون كثيراً من نظرياتهم المهمة في سلوك الانسان الفردي والاجتماعي ومما جاء في كتاب علم الاجتماع الى العلامة نقولا حداد حول مؤثرات البيئة والوراثة . لما كان الحي حساساً او ذا شعور كان عرضة للانفعال والتأثير كثيراً او قليلا من جميع المؤثرات فيه والمحرضات له ، وهو يتكيف حسب هذه المؤثرات بل هو خلاصة فريقين من المؤثرات تتفاعلان في حياته الفسيولوجية والبيولوجية ايضاً وهي مؤثرات البيئة ومؤثرات الوراثة . ونعني بمؤثرات الوراثة اجتماع الخواص والصفات المركبة المنتقلة من الابوين الى البنين واجتماع الخواص والصفات يحمل الارث النوعي خاصة في كل فرد يسمى هذا النوع من المؤثرات ، العوامل الوراثية . فالوراثة اهم عامل من عوامل التطور وكلما حاولت البيئة ان تغير شيئا في صفاته اجتهدت الوراثة ان ترده لاصله وسبب اصرار الوراثة على المحافظة على صفات النوع هو ان [الخلية الجرثومية] تنقل من جيل الى جيل مستقلة في عملها وهي وديعة في الجسم الحي . اي ان هذه الخلية المودعة في بويضة الام الملقحة من جرثومة الاب لاشأن لها في بناء جسم المولود بل تبقى محفوظة غير متغيرة ووظيفتها انشاء او تكوين الخلية الجرثومية الجديدة التي ستكون في الجيل التالي ، هذا هو السر ان المولود يرث صفات والديه واجداده .

وقد اصاب نابغة الادب الاستاذ الكبير (العلائلي) في تقسيم الوراثة الى صنفين (١) وراثة تاريخية (٢) وراثة تأثرية او انفعالية وهو وان لم يختلف عن غيره في هذا التقسيم الا ان حصر القسم الثاني في الشعور الذي يرثه الجنين من امه لامن ابيه وهو اقرب الى تأثير اجناس الامهات في الاولاد الذي ذكرناه عن اسلافنا العرب .

اما علماء النفس فقد توصلوا بفضل قانون الوراثة الى نتائج كبيرة في بحوثهم عن الغريزة وتطورها فالمقصود بالغريزة عندهم هو مايشاهد في الكائن الحي من استعداد فطري يجعله يتأثر بمنبهات معينة توقظ في نفسه نزعات او رغبات خاصة من شأنها ان تدفعه الى سلوك معين يرمي اجمالا الى نفع الكائن الحي او نفع نوعه . ولايصدر السلوك الغريزي عن الكائن الحي اعتباطاً بل مدفوعاً فيه بتأثير عوامل معينة تقدمته كما انه يرمي الى غاية او قصد خاص . وقد سميت هذه المنبهات بالمثيرات الآهلية للغريزة . فكل غريزة يصحبها انفعال او تأثر من نوع ما يثير النشاط الغريزي فهو اشبه شيء بالوقود الذي يصهر المرجل ليدفع البخار الى الانابيب على جهاز الحركة ولولا الانفعال لما تحركت الرغبة او النزوع الذي من شأنه توجيه سلوك الكائن الحي في اتجاه معين[٣].

ففعل الانسان حسب تطور الغريزة يشتمل على ثروة اجداده في عالم الاحياء منذ عصر (الخلية) مضافاً الى ثروته الذاتية المكتسبة من تاريخ ميلاده الى يوم مماته وعلى ضوء ماتقدم نقول :

ينجلي لنا تأثير الوراثة المحمدية في الحسين (ع) من جوامع الكلم في نصوص الاحاديث النبوية منها قال (ص) : ـ

١ ـ [كنت انا وعلي بن ابي طالب نوراً بين يدي الله فلما خلق الله تعالى آدم قسم ذلك النور جزئين جزء انا وجزء علي] .

٢ ـ [لما خلق الله تعالى آدم ركب ذلك النور في صلبه فلم يزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب ففيّ النبوة وفي علي

الخلافة][1] .

٣ ـ وروي برواية اخرى [حتى قسمه جزئين فجعل جزء في صلب عبد الله وجزء في صلب ابي طالب فاخرجني نبياً واخرج علياً وصياً] .

٤ ـ قال «ص» : [ان الله عز وجل خلق السموات سبعاً واختار العلى منها واسكنها من شاء من خلقه بني آدم واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم فأنا خيار الى خيار] . . . الخ

٥ ـ قال «ص» [خير الناس العرب وخير العرب قريش وخير قريش بنو هاشم] .

٦ ـ قال « ص » [الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام] .

٧ ـ قال « ص » [ادبني ربي فأحسن تأديبي] .

[وقال علي بن ابي طالب « ع » كنت من الرسول [ص] كالضوء من الضوء والذراع من العضد] . وذلك لان الضوء الاول يكون علة الضوء الثاني فشبه نفسه بالضوء الثاني وشبه رسول الله (ص) بالضوء الاول منبع الاضواء والانوار سبحانه وجلت اسماؤه بالشمس التي توجب الضوء الاول ثم الضوء الاول يوجب الضوء الثاني وهكذا لايزال يوجب بعضه بعضا على وجه الانعكاس وبطرق العلية وبشرط المقابلة[2] وعلى هذا ذهب الصوفية وفي مقدمتهم (الشيخ ابن عربي) ان الكلمة المحمدية والحقيقة المحمدية او النور المحمدي شيء واحد والنور المحمدي هو اكمل مجلي خلقي ظهر فيه الحق ، في الانسان الكامل والخليقة ، الكامل بأخص معانيه ، والحقيقة المحمدية من ناحية صلتها بالعالم مبدأ خلق العالم اذ هي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء او هو العقل الالهي الذي تجلى الحق فيه لنفسه فالنور المحمدي ازلي لقوله «ص» (اول ما خلق نوري) «٦»

وعليه ففي الحسين «ع» ناحيتان ناحية حادثة وهي ما يتصل منه بالصورة العنصرية الوراثية وناحية ازلية ابدية وهي ما يتصل بالجانب الالهي فهو [حق وخلق] وهو النشأة الحاملة لاوصاف الحقيقة المحمدية والصفات العلوية وهذا سرّ قوله (ص) [حسين مني وانا من حسين] وهو اشارة الى التجلي الالهي فهو يرى ما لا يرى ابناء النشأة الدنيوية ويشهد ما لا يشهدون لأن الله تعالى قد حولهم في بواطنهم في النشأة الآخروية كما تقتضيه الحقيقة المحمدية والحقيقة المحمدية هي الاول والآخر . .

وهذا مايدلنا عليه قوله «ص» : [نقلنا من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الزكية) فكان النبي وعترته منزهين عن دناءة الاباء وعهر الامهات ومنزهاً عن الرذائل والافعال التي تحط الكرامة الانسانية بدليل قوله تعالى : [هو الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) اي انتقالك من اصلاب الموحدين الساجدين الى ارحام الموحدات الساجدات .

وكان الحسين «ع» قد اشار الى منزلة العترة من الحقيقة المحمدية والى مكانة الوراثة العنصرية المحمدية منها وفي قوله للوليد والي المدينة : (ايها الامير إنا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم . ويزيد رجل فاسق شارب خمر قاتل النفس المحرمة معلن للفسق (ومثلي لايبايع مثله) .

وفي قوله عندما استأذنه ولده علي الاكبر في منازلة جند الباطل في الطف فتلى : «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع

عليم» .

وقد ولد الحسين «ع» بحكم قانون الوراثة من سلالة الانبياء الكرام ذرية ذرية بعضها من بعض ومن خير ارومات العرب عنصراً ومن اعلى ذوائب قريش فرعاً ومن اكرم عيدان قصي مجداً وقد نشأ عن الآباء الأخيار والامهات الطواهر وتفرع من شجرة باسقة الندى ، شامخة العلى عربية الاصل ، قرشية الاهل منافية الاعطان هاشمية الاغصان .

ثمرتها القرآن وقد سقيت بماء ينابيع الحكمة والعلم في رياض الحلم والمروّة ، فلا يذوي عودها ولا تجف ثمرتها ولا يظل اهلها اصلها ثابت وفرعها نابت .

«ولقد اخترناهم على علم على العالمين»

وممن انتبه الى هذه الناحية في شخصية الحسين «ع» الفاضل «العلائلي» فقال : ان هاشماً وعبد المطلب وابو طالب ثلاثتهم على لون واحد من الأخذ الديني والانتزاع الاجتماعي وقد كملت الوراثة الدينية بالنبي (ص) إذ كان مظهر الضمير الديني على اتم اشكاله ، واكمل اوضاعه ، إذن فالحسين (ع) كان غنياً ما في ذلك شك بما تركب في دمه من الوراثات الدينية المتصلة على طول حبل النسل الممدود وفي اعماق الماضي البعيد وقد كان لهذه الوراثة بوادر ظاهرة في كل تصرفاته الخاصة والعامة ومن التفاته العجيب الذي لم يسبق احد في هذا الباب قوله : ـ أما الوراثة التأثرية او الانفعالية عليه ، نعلم ان السيدة فاطمة «ع» وضعت الحسين «ع» ولها من العمر عشرون سنة تقريباً وكانت برة نقية صالحة فهي لاتفتأ جاهدة على اعمال التقوى وفي سنة ثلاث للهجرة التي كان الحسين جنيناً وقعت غزوة «احد» وهذه احدثت ابلغ الاسى واعمقه في النفوس عامة ونشرت على الوجوه نوعاً من الكآبة بسبب ما اصاب المسلمين حتى لقد دخلت الوتيرة والذحل كل بيت والنبي «ص» اصيب بعد الحمزة «رض» وهذا يشعرنا بأن السيدة فاطمة جزعت من نتائج هذه الغزوة والتي لم تكن في جانب جيش ابيها وادركها الاسى العميق والحزن المرير لفقد حمزة ومعنى هذا ان الانفعالات التي تأثرت بها ورثتها لجنينها وهي :

١ ـ اخذ النفس باعمال البر والتعلق بحبائل التقوى .

٢ ـ غلبة الشعور بنوع من الأسى فقد كانت هذه الظاهرة واضحة عند الحسين في حياته ولهذا كان قليل المرح كثير التفكير بمستقبل الامور وسط هذه الزعازع الناشبة والعالقة بأطراف المجتمع .

٣ ـ نضوج السخيمة عنده على الناكبة عن طريق الهدى فإن السيدة فاطمة «ع» ولاشك انه قد ملك مشاعرها تحرق شديد للتأثر من اعداء ابيها ولو في التمني وهذا الشعور ورثه الحسين وشاءت الظروف ان يكون اعداء جده الذين وتروه في (احد) هم اعداؤه يوم استقبل الامويين بالكفاح وقد وتروه ايضاً .

فالحسين من هذه الناحية كان مثقلا بمتارك الوراثة التأثيرية ومتلبدات الوراثة التأريخية وهو من بين هاتين الوراثتين . . .

اجل ! كانت سيرته الشخصية ونهجه في الحياة قد جعله يرى الحق في جميع الاشياء لانه منها كالقاعدة والمقياس والاشياء انما تتغير تبعاً للاستبداد الاخلاقي في الانسان وقد دفعته سنة الوراثة وتربيته الذاتية لتطبيق الفكرة الاصلاحية المثالية التي اعدها اسلافه وفق النظام الصالح .

ومن الانقلابات والثورات الخطيرة من قضية (فدك) الى خروج الخوارج ومصرع ابيه وقد

اعدت منه وارثاً محمدياً حقيقاً بأن يقوم بما تمليه عليه طبائعه النفسية في عبء الثورة وعلى دولة الجور والباطل .

وطاب من بعد طيب الأصل فارعه وهذا الغرس الذي غرسه رسوله«ص» في فرعه الحسين(ع) وأشرف هو بنفسه على تربيته وسقاه بيده حتى طاب ثمره كما طاب أصله وكان من ثمره جماع الفضائل العالية والعناصر الكمالية في طبيعة شخصية الحسين القوية والتي تشتمل على «المروءة» وما يتفرع عنها من الإباء والشجاعة ، والكرم ، والوفاء ، والاريحية ، والجاذبية والنشاط العقلي ، والمشاركة الوجدانية والحكمة ، والثقة بالنفس ، والتفاؤل والتواضع واعتدال المزاج والتضحية في سبيل المبدأ والدين والشعور بواجب المسؤولية والمثابرة وتقديس (الغائية) في خدمة العقيدة ، والصراحة التي تنطوي على عدم الالتواء في الفكر والقول والعمل ، وقوة الإرادة وكل سجية من هذه السجايا الرفيعة تشتمل على عناصر نفسية يطول شرحها وتحليلها مما يحتاج الى تأليف مجلد ضخم ولكن نجمل القول والتنويه عن جذع هذا الغرس الطيب في الحسين«ع» وعن أقوى عنصر في طبيعته الكمالية . أما الجذع فهو المروءة وأما العنصر القوي في طبائعه النفسية وصفاته الكمالية هو عنصر الإرادة .

ان المروءة هي دعامة الدعامات للهيكل الأخلاقي وهي عند العرب كالجذع من شجرة الفضائل الانسانية الكاملة فقد جاء في الحديث الشريف «لا دين إلا بمروءة» .

وقال أمير المؤمنين «اقيلوا ذوي المروءات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده يرفعه» وقال ابن عباس : (المروءة ان تحقق التوحيد ، وتركب المنهج السديد ، وتستدعي من الله المزيد) ومن معانيها عندهم : (ان تعطي من حرمك وتفعو عمن ظلمك) فهي نزعة نفسية سامية تحمل النفس على فعل الخير لأنه خير وميزان أخلاقي للقيم الروحية .

واللغويون يعرّفون أو يفسّرون المروءة انها [كمال الرجولة طوراً وطوراً انها الانسانية] والظاهر اللغوي من اشتقاقها يفيد ان القوم وضعوها للدلالة على سمو النزعات النفسية المقترن بقوة الروح[٢] والدليل على ذلك قوله(ص) : من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت محبته وقال أعرابي : «والله لولا ان المروءة ثقيل محملها شديدة مؤونتها ما ترك اللئام للكرام شيئاً» .

وقال بعض البلغاء «من شرائط المروءة ان يتعفف المرء عن الحرام ويتصلف على الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستظل على ما يسترق ولا يعين قوياً على ضعيف ولا يؤثر دنياً على شريف . ولا يسر ما يعقبه الوزر والإثم ، وألا يفعل ما يقبح الذكر والاسم» . والمروءة في تعريف الفلاسفة وعلماء النفس هي «عظم النفس» ولا تنطبق إلا على الأشياء العظيمة والمرئي هو الانسان الذي يحس انه أهل لعظائم الأمور والذي هو في الواقع كذلك .

والمروءة تقتضي العظيم دائماً فهي كالجمال في انه لا يوجد إلا في جسم عظيم المرىء هو في الطرف الأعلى بعظمته ذاتها ولا يطمع إلا في الخير وهو قبلته الوحيدة . وهذا الخير إنما هو الشرف الذي هو جزاء الأعمال الباهرة ، فالشرف بلا جدال هو أعظم جميع الخيرات وعلى ذلك فالمرء إنما يهتم في سلوكه بما يمكن ان يوصل الى الشرف ، وفي الحق ان القلوب المرئية

لا تعتد على الخصوص إلا بالشرف ما دام العظماء يطمعون على الأخص في الشرف الذي برونه لأنفسهم الجزاء الأوفى . وما دام المرئي أهلاً لأعظم التشاريف لزم أيضاً ان يكون أكمل الرجال ومتى اجتمع للمرء أعظم فضل كان له الحق في أجمل نصيب لذلك نجد ان أهل (المروءة) يبين عليهم غالباً الأنفة والإباء لهذا يقتحمون الأخطار العظيمة ويضحون بحياتهم من غير تأخر لأن الحياة لا تظهر لهم بأنها تستحق ان يحرصوا عليها بكل ثمن ولاهتمامهم بالحق أكثر من اهتمامهم برأي الغير يقولون ويفعلون بصراحة في وجه كل الدنيا ، كأنما ذلك هو خاصة النفس العزيزة التي لا تبالي بأحد ، لذلك فإن المرء مخلص كمال الاخلاص وصراحته تظهر بما يبديه غالباً من الاستهانات بالموت لأنه شغف بالحق فهو يقوله دائماً ، وانه فوق ذلك لا يحمل الحقد على ما قدم له من سيئة لأنه ليس من شيم النفس العظيمة خصوصاً ادكار السيئة وخليق به أن ينساها[٨] .

والآن فإن هذه التعاريف والأمثال العربية لمعنى المروءة وصفات الرجل المرئي كما وصفها فلاسفة علم الأخلاق وعلم النفس نجدها عبارة عن معنى واحد من معاني طبيعة سيد الشهداء عليه السلام بل اننا نقول : ـ لو كانت المروءة رجلاً لكانت الحسين«ع» ـ وقد ضرب لنا ابو الشهداء مثلاً صادقاً على مروءته العربية في ثورته التحريرية عند ملاقاته للحر وعسكره الجرار «بذي حسم» وكان الوقت وقت الظهيرة في البادية وقد ألهبت وقدة العطش أكباد جنود الحر وخيولهم وعددهم الف فارس فقال ابو الشهدا(ع) لفتيانه : «اسقوا القوم وارووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً ـ أي إسقوها قليلاً ـ فأقبلوا يملؤون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس حتى سقوها عن آخرها وقد قام الامام ابو عبد الله(ع) بنفسه فخنث السقاء بيده ليشرب علي ابن الطعان المحاربي ويسقي فرسه وكان آخر من لحق بعسكر الحر لملاقاة ابي عبد الله وحربه ولكن مروءة الوارث المحمدي عليه السلام أبت أن يهلك عدوه وفرسه عطشاً ولهذا قال فلاسفة علم الأخلاق وجهابذة علم النفس ان المروءة تقتضي العظيم دائماً ، وفوق ذلك ان المرئي لا يحمل الحقد على ما قدم له من سيئة لأن الحقد ليس من شيم النفس العظيمة .

وفي الحسين يقول الشاعر :

نفى عنه عيب الآدميين ربه
ومن مجده مجد الحسين المطهر ؟

ومن آثار مروءته التي تنطق بعظمة طبائعه النفسية وزين بها تأريخ الأحرار الأباة على مدى الدهر موقفه الرهيب في ليلة العاشر من المحرم وقد جمع أصحابه الكرام ليمتحن قلوبهم ويأخذ بيعتهم على الموت فقال لهم : «اما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت ابر ولا اوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً الا واني لأظن يوماً لنا من هؤلاء الا واني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم من ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يريدون غيري» ثم نظر الى بني عقيل فقال : «حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم اذهبوا فقد اذنت لكم» .

فانظر اي مروءة أعظم وأوفر من هذه المروءة المنطوية على النجابة والشجاعة وحب التضحية والصراحة التي لا تعرف الالتواء في الفكر والقول والعمل وكم كان قول علماء علم النفس صادقاً ومنطبقاً على مروءة أبي عبد الله في

قولهم : «ان أهل المروءة يبين عليهم غالباً الأنفة والإباء لهذا يقتحمون الأخطار العظيمة ويضحون بحياتهم من غير تأخر لأن الحياة لا تظهر بأنها تستحق ان يحرصوا عليها بكل ثمن ولاهتمامهم بالحق أكثر من اهتمامهم برأي الغير ، يقولون ويفعلون بصراحة في وجه كل الدنيا كأنما ذلك هو خاصة النفس العزيزة التي لا تبالي بأحد ، لذلك فإن المرء مخلص كمال الاخلاص وصراحته تظهر بما يبديه غالباً من الاستهانات بالموت لأنه شغف بالحق فهو يقوله دائماً .

أما الصفوة المؤمنة من أصحاب الحسين«ع» والجماعة المختارة من أهل بيته وبقية السيوف من آل عقيل فقد برهنوا على مروءتهم في مشاركتهم الوجدانية له فقالوا :

(ولم نفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك لا أرانا الله ذاك أبداً) ثم قال آل عقيل المياميز

«سبحان الله فما يقول الناس لنا وماذا نقول إذا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ما صنعوا لا والله ما نفعل ولكنا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا» .

يقول علماء علم الاجتماع : ان اصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها فإنهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الأرواح إلا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً لمعتقده ، وبهذا كان تأثيرهم عظيماً جداً لأن الايمان أكبر قوة في تصريف الانسان والذي قام بأكبر حوادث التأريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم حول ولا طول إلا الايمان .

وقد تألفت الجماعة النفسية في أصحاب الحسين«ع» عند اختفاء الذات الشاعرة في أفرادها واتجاه مشاعرها وأفكارها نحو غرض واحد إذ تأثرت نفوسهم تأثيراً شديداً بحادث جلل وهو الاستشهاد في نصرة العدالة والحق والمثل المحمدية السامية وفي نظر علماء علم النفس الحديث ان آلافاً من الناس إذا اجتمعوا عرضاً في رحبة واسعة بغير قصد معين لا يكونون جماعة نفسية كأصحاب عبيد الله بن زياد الخبيث .

هذا وان خطاب السبط الشهيد لأصحابه في تلك الليلة المرعبة ينم عن قوة نفسية الزعيم الحكيم وثقته بعدالة قضيته وقد دل موقفه وكلامه على انه كان قليل التأثر ولكنه شديد التأثير لا يهاب ولا يرهب ، لا تضحكه المضحكات ولا تحزنه الدواهي المفزعات المحزنات ولا تستفزه المستهجنات والمناهضات وما كان كل ما في الوجود ما يزعزع ايمانه وكان عنده من الحجج والبينات ما يدك براهين أعدائه واحتجاجاتهم أو يرمي بها الى الحضيض ثم يدمغ بحقه يافوخ الباطل فإذا هو زاهق . .

عنصر الارادة في الحسين

يرى العلم ـ علم النفس ـ ان الغاية المقصودة من الفعل هي مقياس العنصر الارادي فيه وهذا هو الشأن في جميع الأفعال التي تدفع اليها الرغبة ، وان حرية الارادة في سائر مظاهرها هي وليدة نزوع خاص يختلف عن سائر النزعات الاخرى ، كما ان الارادة هي رغبة عززها الحكم بأننا سنبلغ بها الغاية المرادة منها لهذا قال «جيمس» ان عمل الارادة ما هو

إلا حصر الاهتمام في مسألة صعبة والتشبث بها أمام العقل ، ويصح ان يقال ان حصر الاهتمام هو المظهر الجوهري لكل ارادة ، ان إقدام الشخص على العمل تلبية لنداء المبدأ قد تقرر في نفسه من زمن بعيد بعد التروي والتفكير ، وان التضحية بالذات في سبيل مصلحة الأخرين هي مبدأ أسمى من كل اعتبار سواه لأنه وصل الى هذا الاستنتاج بعد تفكر ناضج وطول روية ولم يتردد في تطبيق هذا المبدأ وتنفيذه وان قامت أقوى الدوافع معترضة عليه ، محاولة ان تحول دونه ، وهذا النوع من الارادة هو ما يصح ان نسميه «العزم» والتمسك بالرأي واحترام المبدأ وهو لهذا أسمى ضروب الارادة ، لأنه لم يتكون إزاء ظروف خاصة دعت الى التطبيق ، وإنما جاء بسبيل طبيعة عامة وشعور متأصل .

ان ايثار التضحية بالذات هو حاسة أدبية تكتسب غالباً بتشرب المبادىء الأخلاقية العليا ، وقد اندمجت هذه الحاسة في الجنوح نحو السلوك «بمثله الأعلى» حتى ليستحي ويستنكف من نفسه إذا هو لم يفعل ويجد الغبطة والرضى إذا هو فعل ، أي ان اعتداده بالذات يثير لديه رغبة قوية في تحقيق مثله الأعلى مهما تكن الظروف المحيطة به ، ولكن تأثير هذا المبدأ في سلوكه على هذه الصورة يقتضي توافر الى حد كبير من ـ ضبط النفس ـ وهو دون سائر العواطف الأدبية الغلابة التي لا غناء للارادة عنها خاصة حين تنمو الارادة الى عزم شديد وهو أيضاً نوع رفيع من عاطفة الاحساس بالذات لأنه يعين الشخص على تطبيق مبدئه برغم اعتراض سائر الدوافع الاخرى عليه ، وبحمله مستقلاً في تصرفه عن تأثير المجتمع ويمكنه من ان يجعل نفسه في مكان وسطه الاجتماعي[٩] .

وفي مذهب (ادلر) انه لا يمكن ان تتكون الشخصية وتنمو إلا إذا كانت النفس الانسانية تتجه في نشاطها اتجاهاً (غائياً) لأن الغاية التي يسعى نحوها الشخص وتنشط لتحقيقها هي العامل الحاسم في توجيهه فيوقن «ادلر» ان «الغائية» تسيطر على النفس الانسانية ، فالحياة النفسية للانسان تتجدد على رأي «ادلر» تبعاً للغاية التي ينمو الفرد نحوها وينبع ذلك من حاجة الكائن الحي للتوافق مع البيئة التي يعيش فيها ، ولا يمكن إلا أن نتصور للحياة النفسية هدفاً تتجه نحوه صنوف النشاط التي توجد في الحياة النفسية .

وتظهر قيمة الاحساس والانفعال من الهدف أو الغاية ذلك لأن المثال الأعلى للشخصية الذي يتخذه الفرد يبقى عاملاً فعالاً على الدوام ويحدد الاتجاه الذي يصطنعه الشوق او الميل او الانتباه ، ويلزمها على الدوام بالتصويب نحو أهداف عينت من قبل ، لأن «الغائية» التي تميز السلوك النفسي تحدد لمختلف ضروب النشاط الارادي وغير الارادي سبلاً معينة[١٠] ينبغي ان تسير فيها حتى تبلغ الهدف الذي عين لها .

ونحن على ضوء هذه الأراء السديدة نبحث عن مظهر عنصر الارادة في طبيعة أبي الشهداء(ع) وأثرها الفعال في ثورته التحريرية المباركة فنقول :

لقد علمنا مما مر كيف كان تأثير قانون الوراثة وكيف يرث الأبناء صفات الآباء والأمهات وخصائصهم النفسية والطبيعية كما علمنا من قبل كيف حمل ابو الشهداء ارث النبوة والامامة والانفعالات الفاطمية ، كل تلك المواريث خلقت فيه عنصر الارادة القوي الذي لم تضعفه الصعاب والعقبات ، ولاثنى عزمه الفشل والخيبة ، ولا صد حزمة حزمة اليأس والقنوط بل كانت ارادته تعبر عن قوله الفصل في ثورته

التطهيرية ، اما النجاح او الموت . .

ورث هذه الارادة الصلبة عن جده منقذ البشرية ومحرر الانسانية ، تلك الارادة النبوية التي تحطمت على صخرتها عزمات قريش وجبروت طاغوتها وقد تجلت في كلمته لعمه أبو طالب رضي الله عنه «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» وهذا الخلق النبوي الكامل قد انتقل بحكم الوراثة الى طبيعة الحسين التاريخية والنفسية ، وقد كان مبدأ ـ الغائية ـ هو المسيطر على طبائعه النفسية لأن الغاية التي سعى أجداده نحوها ونشط أبوه لتحقيقها هي العامل الفعال في توجيه ارادته كما قال «ادلر» آنفاً من ان الحياة النفسية للانسان تتجدد تبعاً لغايته التي يهدفها والغاية التي جاهد من أجلها أمير المؤمنين عليه السلام ومن بعده سيد الشهداء«ع» قد جددها في كلمة (اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ، الا لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك) وهذه الغاية النبيلة هي نفس الغاية التي نهض ابو الشهداء لتحقيقها وقد صرح بها في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية عند خروجه من الحجاز نحو الكوفة .

* * *

وقد كان عنصر الارادة التي اتصف بها ابو الشهداء ملكة من ملكاته النفسية النادرة الوجود وقوية الى درجة خضع لها كل شيء ، وان جميع الناس لم يدركوا ما عسى ان يكون وراء هذه الارادة الصلدة الجبارة المستمرة وقد عجزت أمامها قوى الطبيعة والرجال . .

لقد كبرت ارادة الحسين بن علي في الصبر على الحفاظ المر والإباء المكبوت في صلح أخيه الامام الحسن(ع) مع معاوية وبقي غليان نفسه محتدماً لم يجد مجالاً للانفجار طيلة حياة أخيه الامام السبط .

* * *

لقد تعالت ارادة الحسين على ارادة معاوية ورغبته في أخذ ولاية العهد لابنه يزيد لأن الارادة السفيانية تنافي مبدأ الخير لأمة محمد«ص» وارادة الحسين مصدر أفعال الخير والسعادة وعصمته لا تدفعه إلا الى الكمال .

* * *

وقد تعاظمت ارادة أبي عبد الله«ع» امام الوليد امير المدينة لما أراد اكراهه على بيعة يزيد ، تعاظمت ارادته ليحفظ لطبعه الهاشمي كل عظمة عربية وكرامة انسانية ، لأن المبايعة ليزيد خضوع وخنوع لدعارته وفسقه ولأنها رق واستسلام للفحشاء والمنكر حتى الموت . فأنكر وثار ثورته التحريرية كما أرادت طبائعه النفسية فصرخ قائلاً : «ومثلي لا يبايع مثله» .

وقد انفت ارادته ان يصيخ لقول المشيرين عليه بعدم الخروج من مكة وقد أنفت كذلك ان يمتنع من تلبية نداء أهل الكوفة والانصراف اليهم لشعوره بالتبعة الاخلاقية فطلق حياة الدعة والطمأنينة لخدمة الأمة ودفع الغوائل والذل والهوان عنها ، ذلك تلبية لنوازعه الداخلية فكان الحمول الأمين الصادق .

* * *

وقد أبت ارادة أبي الشهداء«ع» العنيدة مطاوعة «الطرماح» للاحتماء بجبل (أجاء) والفرار من الموت ، لأنه ذو قوة روحية لا تنضب وذو خواص علوية لا تضارع ، وشمائل فاطمية لا تضاهى ، فقال للطرماح (ان بيننا وبين القوم

قولاً لا نقدر معه على الانصراف فإن يدفع الله عنا فقديماً ما أنعم علينا وكفى ، وان يكن مما لا بد منه ففوز وشهادة) .

* * *

وقد تسامت ارادة سيد الشهداء«ع» ان ينقاد لابن مرجانة انقياد الذليل وان يسام سوم العبيد لأنه من بيت النبوة ومعدن الرسالة والذي يخاف العار وهو الجدير بالاحترام والحقيق بوسام الشرف وصاحب الشجاعة الحقة لا يفعل إلا باحساس الشرف . .

* * *

وقد ترفعت ارادته ان تلين ونفسه ان تستكين لطواغيت أمية وترفعت عصمته ان تستنزله عن كرامته الهاشمية وقد أبى الله ذلك له ورسوله والمؤمنون ، وجدود طابت وحجور طهرت ، وأنوف حمية ونفوس أبية لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام . .

نعم !! لم تزعزع ارادة الأسد الخادر الهصور عظيمات الدواهي ، وجسيمات الخطوب والملمات ، ودماء القرابين من أنصاره وأشلاء الضحايا ومهج أطفاله من أسرته الكريمة ومن أبناء عمومته الكرام أو دموع الثاكلات من حرائره المصونات وسبي عقائله الفاطميات ، بل كانت ارادته الجبارة تأبى وتأنف وترفع وتتعاظم وتتسامى كلما كثرت قرابينه من أفلاذ كبده وتناثرت أعضاء أصحابه واصطبغت أرض الطف بدمائهم ، وارتفع عويل الهاشميات وصراخهن حول خيام عليا نزار . وكلما ازداد ضغط اللئام من انذال الكوفة وهجومهم على فسطاطه ازداد جأشاً وجرأة وإقداماً .

أما عبيد العصا وعصبة الآثام من نفايات الكوفة وحثالاتهم فكانت جموعهم تنكشف عن سطوة حسامه انكشاف «المعزى» إذا شد فيها الذئب فينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ، هؤلاء العبيد الأوباش هم صراخ أئمة المستهزئين (الذين جعلوا القرآن عضين ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون . .) .

توفيق الفكيكي(*)

(*)أحد كبار رجالات العلم والقضاء في العراق ، ولد في بغداد ١٣٢١ هـ وتوفي في ١٩٦٩/٧/٢٢م . راجع مقال «توفيق الفكيكي في ذكرى وفاته الثالثة» بقلم «محمد سعيد الطريحي» المنشور في جريدة المجتمع (كربلاء) العدد ١٧١ الصادر في ١٩٧٢/٧/١٧م .

(١) عن كتاب علم النفس الاجتماعي .
(٢) عن كتاب الشخصية لمؤلفه محمد عطية الابراشي .
(٣) علم النفس الجنائي .
(٤) عن مسند احمد بن حنبل ٢و٣ عن ابن المغازلي الشافعي .
(٥) جزء ١ من كتاب الراعي والرعية للكاتب .
(٦) نصوص الحكم للشيخ ابن عربي .
(٧) روح العروبة لمؤلفه عبد اللطيف شرارة .
(٨) الأخلاق لارسطو .
(٩) علم النفس الاجتماعي .
(١٠) عن كتاب علم النفس الفردي .